التَّشْكِيلُ السَّرْدِيُّ وَأَثَرُهُ فِي حَلِّ مُتَشَابِهَاتِ اَلْقَصَصِ اَلْقُرْآنِيّ

Narrative Formalisation and its Impact on Resolving Similarities in Quranic Storie

سمير بعزيز*

مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي في النظام التعليمي الجزائري

جامعة العربي بن مهيدي –أم البواقي- (الجزائر)

bazizsamir555@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022-01-24	تاريخ التقييم:2022-03-09	تاريخ القبول: 15- 06- 2022

الملخص:

هذا المقال هو محاولة لفتح طريق نحو كشف بعض الأسرار المتعلقة بنصوص سرد القصص القرآني، والخروج بحلول لما تشابه ذكره فيها، وذلك بمقاربتها من خلال الانتقال من خطية النصوص إلى تشكيل المشاهد والأحداث، بالاعتماد على دلالات الألفاظ والتراكيب ومدى قدرتها على آداء وظيفة التشكيل.

كلمات مفتاحية: التشكيل؛ السرد؛ المتشابه؛ القصص؛ القرآن.

Abstract:

This article is an attempt to open a pathway towards revealing some secrets related to the texts of Quranic storytelling, This research tries to surface with solutions for the similarities between these stories, We approached these stories by moving from the linearity of the texts to the formalization of scenes and events, Besides this study relies on the semantic of words and structures and their ability to perform the function of formalization.

Keywords : Formalization; Narration; Similarities; Stories; Quran.

المؤلف المراسل:

تمهيد:

كثيرا ما يتردد إيراد القصة الواحدة في سور متعددة من سور القرآن الكريم بصيغ وأساليب مختلفة ومتقاربة في آن واحد، ويبرز وجه تشابه كبير في ألفاظ النصوص الناقلة لأحداث القصص القرآني، مما يجعل السامع يتوقف عند ذلك وقفة تدبر وتفكر يسعى من خلالها إلى محاولة فهم سر الاختلاف الوارد في تعابير الآيات الناقلة للأحداث.

بذل المفسرون جهدا جبارا في تفسير كلام الله عز وجل، ودونوا ذلك في كتبهم، وتبعهم علماء أفردوا كتبا خاصة في بحث مسائل ما تشابه لفظه وتكرر إيراده من نصوص الكتاب الحكيم، وبينوا وجوه الإعجاز فيه، وحاولوا كشف ما استطاعوا من أسرار التكرار الوارد في النصوص، وقد كان لهم فضل السبق في ذلك.

جاءت هذه الدراسة تحذو حذوهم، وتسير سيرهم في محاولة التطلع إلى بعض تلك الأسرار، ولكن بمنهج مختلف، وطريق مغاير، يعتمد على آليات وإجراءات حديثة يقتضيها المقام، وقد صب جهد الدراسة على بعض المواضع من نصوص القصص القرآني، أُخِذَت كنماذج حية توقف عندها الباحثون ولم يفصلوا فيها بحكم جازم، وبقي الاختلاف بينهم قائما, والحكم الفصل معلقا، وبعد تأمل كبير وبحث طويل فيها تبين لي أن الفيصل في ذلك يرجع إلى معاملة تلك النصوص بمعاملة العين المشاهدة للأحداث الواقعة، فهي تتبع كل حدث بتفاصيله الواردة في النص، وفق الألفاظ الدقيقة المستعملة في تصويره وتقريبه لخيال المستمع، فلجأت إلى محاولة إعادة تصوير الحدث وتشكيله وفق معايير اللفظ المعبر به، ورسمت الأمكنة والشخصيات والأحوال التي شكلتها لغة السرد، فتبين لي بعض ما كان مبهما، وتوصلت إلى الفصل في ما كان عندي معلقا.

اخترت ثلاثة نماذج من النصوص، التي بقي سر فهمها معلقا عندي، محاولا مقاربتها وفق تطبيق آليات التشكيل السردي وبعض إجراءاته، فكان النموذج الأول من قصة موسى عليه السلام وحواره مع فرعون وملإه، والثاني من قصة شعيب عليه السلام وكيفية وقوع العذاب على المكذبين من قومه، وهذان النموذجان من الأمثلة المتطابقة مع متشابه القصص الذي تكرر بلفظه، وأما النموذج الآخر فكان في مشهد غرق ابن نوح عليه السلام،

وهو مشهد لم يتكرر ذكره في موضع آخر من سور القرآن، ومع ذلك بقي المشهد غامضا لم يفصل فيه، فَعُدَّ في زمرة المتشابه.

من أجل السير في هذا البحث والوصول إلى الغاية المرجوة منه، سطرت طريقا أسير فيه وفق ما تقتضيه منهجية البحث، فبدأت بتوطئة مهّدت بها للدراسة، فذكرت فيها بعض المفاهيم المتعلقة بموضوع البحث، فبيّنت مفهوم التشكيل السردي وما يتعلق به مختصرا، ومثله متشابه القصص، ثم ولجت صلب الموضوع، فعرضت النماذج، وحاولت دراستها بالاعتماد على أقوال اللغويين والمفسرين، وحلّلتها وفق آليات التشكيل والتصوير، حتى أتوصل إلى الغاية المرجوة من البحث، وفي آخر البحث أجملت نتائج ما توصلت إليه الدراسة.

1- التشكيل:

1-1- المعنى اللغوي:

يرتبط مصطلح (التشكيل) بالحقل المفاهيمي لفنون الرسم والتصوير، وهو اليوم يطلق على مجموعة من الممارسات الإبداعية، تعرف بـ(الفنون التشكيلية)، وفيها يقوم الفنانون بأخذ أشياء من الواقع الطبيعي لها جاذبيتها في أنفسهم، ثم يعيدون صياغتها بطرق مختلفة، فيشكلونها تشكيلا جديدا مختلفا عما كانت عليه في الطبيعة، حسب أذواقهم وأخيلتهم، فتتشكل بين أيديهم وفق أساليبهم وطرقهم ومناهجهم في التعبير والتشكيل، ويعتمد الفنان التشكيلي في عمله على تقنيتين بارزتين في فن التصوير، أولها: تقنية التصوير ثنائي الأبعاد، كالرسم والزخرفة والتخطيط وغيرها، وثانيها: تقنية التصوير ثلاثي الأبعاد، كالنحت، والخزف، ونفخ الزجاج وتشكيله، والأعمال الخشبية، وغيرها.

يدور معنى (التشكل) في اللغة العربية حول المماثلة والتصوير والمشابهة، قال ابن فارس: "تَقُولُ: هَذَا شَكْلُ هَذَا؛ أَيْ: مِثْلُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ يُقَالُ: أَمْرٌ مُشْكِلٌ، كَمَا يُقَالُ: أَمْرٌ مُشْتَبِهٌ، أَيْ: هَذَا شَابَهَ هَذَا، وَهَذَا دَخَلَ فِي شَكْلِ هَذَا"[1]، وقال ابن منظور: "الشَّكْلُ بِاَلْفَتْحِ: الشِّبْهُ وَالْمِثْلُ، وَاَلْجَمْعُ أَشْكَالٌ، وَشُكُولٌ ... وَشَكْلُ الشَّيْءِ: صُورَتُهُ اَلْمَحْسُوسَةُ وَاَلْمُتَوَهَّمَةُ، وَاَلْجَمْعُ كَاَلْجَمْعِ، وَتَشَكَّلَ الشَّيْءُ: تَصَوَّرَ، وَشَكَّلَهُ: صَوَّرَه"[2].

(التشكل) هو تحول الشيء من صورة إلى أخرى بطريقة ما، مع المحافظة في الاشتراك بين الصورتين على أصل المشابهة والمماثلة، وقد تبين أن معنى (شَكَّلَه): (صَوَّرَهُ)، ويطلق (التصوير) على تحويل الشيء من صور الحقيقة إلى أشكال أخرى، فقد يطلق التصوير على الرسم، كقوله عليه السلام في التصاوير التي كانت على نمرقة في بيت عائشة رضي الله عنها: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ، وَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[3]؛ ومعنى (الخلق) هنا يراد به (التصوير)، وهو نقل صورة محسوسة من الواقع ورسم شكلها على النمرقة، ومعنى قوله: (مَا خَلَقْتُمْ)؛ أي: "صَوَّرْتُمْ، كَصُورَةِ اَلْحَيَوَانِ"[4].

وقد يطلق (التصوير) على نحت الحجارة والطين، وتشكيلها أجسادا، كما في قوله تعالى في معجزة عيسى عليه السلام: (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ) [آل عمران: 49]، والمعنى: " أَيْ أُصَوِّرُ، وَأُقَدِّرُ لَكُمْ "[5]، و(الخلق) هنا ـ أي (التصوير) ـ هو تشكيل مادة الطين وجعلها على هيأة الطير، قال ابن كثير: "وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ، يُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ شَكْلَ طَيْرٍ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ، فَيَطِيرُ عَيَانًا بِإِذْنِ اَللهِ عَزَّ وَجَلَّ"[6].

1-2- المعنى الاصطلاحي:

استعير مصطلح (التشكيل) من مجال الفنون التشكيلية إلى مجال الآداب، وحين يرحل إلى فضاء النص الأدبي " فَإِنَهُ يُسْهِمُ أَوَّلًا فِي تَحْرِيرِ اَلنَّصِّ اَلْمَكْتُوبِ وَاَلْمُقَيَّدِ مِنْ خَطِّيَّتِهِ، وَنَقْلِهِ إِلَى مَوْقِعِ التَّنَاوُلِ اَلْبَصَرِيِّ اَلْمُتَبَلْوِرِ، بِوَصْفِهِ مُسْتَوًى جَدِيدًا مُرَشَّحًا لِلْقِرَاءَةِ يُضَافُ إِلَى اَلْمُسْتَوَى التَّأَمُّلِي اَلذِّهْنِيِّ اَلْمُتَدَاوَلِ، وَيُحَرِّضُ مُجْتَمَعَ التَّلَقِّي عَلَى اَلسَّعْيِ لِاسْتِكْشَافِ وَتَمَثُّلِ وَقِرَاءَةِ اَلْبُعْدِ اَلْبَصَرِيِّ فِي النَّصِّ اَلْمَكْتُوبِ، عَلَى اَلنَّحْوِ اَلَّذِي يُحِيلُ عَلَى فَضَاءِ اَلتَّشْكِيلِ فِي مَرْجِعِيَّتِهِ اَلْفَنِّيَّةِ (الرَّسْمِ)"[7].

تتشكل الأبعاد البصرية في النصوص المكتوبة وفقا للغة الكُتَّابِ الذين يسعون من خلالها إلى جعل المتلقي يعيش لحظة قراءة النص بكل أبعادها، وتتجلى الصور المشكلة في أذهان المتلقين بحسب بلاغة وبيان اللغة الخطية المستعملة فيه من جهة، والمدارك التأملية وسعة خيال التصوير لدى المتلقي من جهة أخرى، وتؤدي دقة استعمال اللفظ والتركيب في

النص الدور الأساس في عملية (التشكيل)، وانتقال المعاني من مستويات النصوص الخطية إلى مستوياتٍ تجعلها منتصبة واقفة متحركة حية في ذهنيات المتلقين.

ويعتبر النص القرآني أهم النصوص التي تجسد ظاهرة (التشكيل) بلغته المعجزة، فكل تركيب بل وكل لفظ وحرف وصوت فيه إلا وله دوره الجلي في انتقال المعاني من خطيتها في النصوص إلى تجسيدها بكل أبعادها في ذهنيات وتصورات القارئ لها، ومن أروع النصوص فيه تلك التي اعتمدت أسلوب السرد في قصص من سبق، وكانت خير مثال يوضح أبعاد (التشكيل السردي) الذي يتكشف فيه المصطلح " عَنْ قَابِلِيَّةِ إِحَاطَةٍ وَاحْتِوَاءٍ وَتَمَثُّلٍ لِكُلِّ عَنَاصِرِ السَّرْدِ وَمُكَوِّنَاتِهِ، فِي الدَّرَجَةِ اَلَّتِي تَكُونُ فِيهَا هَذِهِ اَلْعَنَاصِرُ وَاَلْمُكَوِّنَاتُ ذَاتَ كَفَاءَةٍ عَالِيَةٍ لِإِنْتَاجِ جَمَالِيَاتِ اَلسَّرْدِ، مِنْ خِلَالِ اَلْمُكَوِّنِ اَلنَّصِّيِّ، وَقَدْ بَلَغَ بَيْنَ يَدَيْ التَّشْكِيلِ أَبْلَغَ مَرَاحِلَ اَلتَّعْبِيرِ وَالتَّمَثُّلِ وَالتَّصْوِيرِ فِي مِنْطَقَةِ اَلْقِرَاءَةِ "[8].

2- التشكيل السردي:

لا يبتعد مصطلح (التشكيل السردي) في مفهومه عن باقي ما قد يرد في بابه من مصطلحات توازيه، مثل (التشكيل اللغوي)، و(التشكيل الصوتي)، و(التشكيل الشعري)، و(التشكيل الدرامي)، وغيرها، إلا أنه يبقى مرهونا بتمظهره عبر نوعين من النصوص الأدبية السردية: القصة والرواية، ومن خلال ذلك يتجلى مفهوم (التشكيل السردي) بأنه "اسْتِخْدَامُ مَجْمُوعَةٍ مِنَ التِّقَنِيَاتِ السَّرْدِيَّةِ اَلْجَمَالِيَّةِ فِي صِيَاغَةٍ جَدَلِيَّةٍ، تَتَأَسَّسُ عَلَى أَنْمَاطٍ مِنَ اَلْعَلَاقَاتِ اَلَّتِي تُنْتِجُ اَلشَّكْلَ، بِوَصْفِهِ حَصِيلَةً لِلتَّفَاعُلِ بَيْنَ هَذِهِ التِّقَنِيَّاتِ، وَطَرَائِقِ التَّعَامُلِ مَعَ اَلْمَصَادِرِ اَلَّتِي اعْتَمَدَهَا اَلْكَاتِبُ أَسَاسًا لِعَمَلِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَطَرَائِقِ اَلتَّلَقِّي مِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ، ثُمَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الرُّؤْيَةِ التَّارِيخِيَّةِ اَلَّتِي تُجَسِّدُ مَوْقِفَ اَلْمُؤَلِّفِ مِنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ اَلْقَضَايَا اَلَّتِي يَطْرَحُهَا فِي نَصِّهِ، مِنْ نَاحِيَةٍ ثَالِثَةٍ"[9].

وحين يلج الباحث ساحة (التشكيل السردي) عليه لزاما استحضار أهم المحطات التي يتحرك المصطلح من خلالها، والتي يمكن تلخيصها فيما يأتي[10]:

أولا: تشكيل خاص بالمكونات السردية: ويشتغل الباحث فيه على أهم المكونات السردية المتعلقة بالنصوص، كـ (تشكيل الراوي)، و(تشكيل المروي له)، و(تشكيل الشخصية)، و(تشكيل الحدث السردي).

ثانيا: تشكيل العناصر الأساسية لعملية القص، وهي عناصر يتميز فيها كل تشكيل بخصوصيته على صعيد بناء النص السردي، ويمكن جمع هذه العناصر في: (تشكيل السرد)، و(تشكيل الوصف)، و(تشكيل الحوار).

ثالثا: لكي يصل التشكيل السردي إلى أعلى المراحل الممكنة من التكامل، لا بد من الاهتمام بأهم قطبين فيه، وهما: (تشكيل اللغة السردية)، و(تشكيل الصنعة النصية).

رابعا: وفي الأخير يجب أن يتضمن (التشكيل السردي) بدوره عنصر (تشكيل الفضاء)، الذي يتوزع على (تشكيل الزمان)، و(تشكيل المكان)، و(تشكيل الرؤية).

3- متشابهات القصص القرآني:

تعتبر دراسة متشابهات القصص القرآني جزءا لا يتجزأ من علم المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وبعيدا عن الدخول في تفاصيل هذا العلم سنقتصر على بحث هذه الجزئية مستقلة عن باقي ما ورد في الباب، ونعني بمتشابه القصص "إِيرَادُ اَلْقِصَّةِ اَلْوَاحِدَةِ فِي صُوَرٍ شَتَّى، وَفَوَاصِلَ مُخْتَلِفَةٍ، وَيَكْثُرُ فِي إِيرَادِ اَلْقَصَصِ وَالْأَنْبَاءِ، وَحِكْمَتُهُ التَّصَرُّفُ فِي اَلْكَلَامِ، وَإِتْيَانِهِ عَلَى ضُرُوبٍ، لِيُعَلِّمَهُمْ عَجْزَهُمْ عَنْ جَمِيعِ طُرُقِ ذَلِكَ، مُبْتَدِأً بِهِ وَمُتَكَرِّرًا"[11]، وتتكرر القصة الواحدة في مواطن متعددة من القرآن الكريم بأساليب مختلفة، مثل: "التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَالزِّيَادَةِ وَالتَّرْكِ، وَالتَّعْرِيفِ وَالتَّنْكِيرِ، وَاَلْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ، وَاَلْإِدْغَامِ وَاَلْفَكِّ، وَتَبْدِيلِ حَرْفٍ بِحَرْفٍ آخَرَ"[12]، وقد صنف جماعة من العلماء في علم المتشابه اللفظي، واعتمدوا في كتبهم على توجيه ما ورد فيه، كلٌ بحسب منهجه الذي سار عليه في ذلك، ومن أشهر الكتب المؤلفة في موضوعه، كتاب: (دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغُرَّةُ التَّأْوِيلِ) للإسكافي، و(مَلَاكُ التَّأْوِيلِ) للغرناطي، و(كَشْفُ اَلْمَعَانِي) لابن جماعة، و(أَسْرَارُ التَّكْرَارِ فِي اَلْقُرْآنِ) للكرماني.

المتشابه في القصص القرآني هو تكرار القصة وأحداثها، في مواطن متعددة من السور، مع التنوع في طريقة سردها، ويرجع هذا التنوع إلى مقصد دقيق، يريد النص القرآني أن يكشف عنه في موضعه الذي ذكره فيه، لغاية يقتضيها المقام، ويرد كل تعبير في مكانه الدقيق، الذي لا يستطيع غيره أن ينوب عنه فيه.

ألّف العلماء كتبا قيمة في توجيه الاختلاف الوارد في ما تشابه من الآيات، وكانت القصة القرآنية جزءا مهما من ذلك، وقد انصبت جهودهم في تأويل المتشابهات منه وفق نظرية السياق العام للسورة التي وردت الآيات فيها، مع عدم إهمالهم لأي سبب آخر يمكن أن يكون معتبرا في عملية التأويل، نحو تركيزهم على النواحي الصرفية أو اللفتات النحوية أو النكت البلاغية التي قد تعتبر في عملية تأويل المتشابهات اللفظية في النص القرآني، ومع ذلك بقيت بعض النصوص تحمل أسرارا تحتاج إلى الكشف عنها على الرغم من ورود كلام أهل العلم فيها، فهذا كلام الله عز وجل، وهذه آياته، (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [لُقْمَان: 27].

انطلاقا من هذه الفكرة قمت باختيار ثلاثة مواقف من أحداث قصص مختلفة، حاولت مقاربتها بالاعتماد على تطبيق آليات وإجراءات (التشكيل السردي)، وما يمكن أن يكشفه من حقائق وأسرار مكنونة داخل النصوص القرآنية السردية، وقد كان اختيار تطبيق هذا الإجراء حتمية واقعية لا بد منها، فمن خلاله يمكن كشف كثير من الحقائق، التي بقيت عالقة بين أقوال المفسرين، ولم يتم الجزم فيها بينهم، وسأُمثل ببعض ما وقع في ذلك، ولم يتم الفصل فيه بينهم بالدليل الصحيح الصريح، ثم أحاول مقاربة وجه الحقيقة من خلال ما يكشفه (تشكيل اللغة) أو(تشكيل الحدث السردي) في نصوص الآيات، أو بعض العناصر الأساسية في عملية القص، كـ(تشكيل السرد)، أو(الوصف)، أو(الحوار)، وقد نحتاج إلى الاشتغال على عنصر (تشكيل الفضاء)، الذي يتوزع على (تشكيل الزمان والمكان) في ما تشابه من القصص الواردة.

3-1- النموذج الأول: حوار موسى عليه السلام مع فرعون:

ورد في هذا المقام قول تكرر في موضعين من القرآن بتشابه لفظي تام، وذلك في قوله تعالى على لسان فرعون: (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) [الشعراء: 34 ـ 35]، ثم جاء القول نفسه منسوبا إلى الملإ من قوم فرعون في قوله تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) [الأعراف: 109 ـ 110]، وقد جمع المفسرون بين القولين بأن "فِرْعَوْنَ وَهُمْ قَالُوا هَذَا اَلْكَلَامَ، فَحَكَى هُنَا قَوْلَهُمْ وَهُنَاكَ قَوْلَهُ، أَوْ قَالَهُ ابْتِدَاءً

فَتَلَقَّفَهُ مِنْهُ اَلْمَلَأُ فَقَالُوهُ لِأَعْقَابِهِمْ، أَوْ قَالُوهُ عَنْهُ لِلنَّاسِ عَلَى طَرِيقِ التَّبْلِيغِ كَمَا تَفْعَلُ اَلْمُلُوكُ، يَرَى اَلْوَاحِدُ مِنْهُمُ الرَّأْيَ فَيُكَلِّمَ بِهِ مَنْ يَلِيهِ مِنَ اَلْخَاصَّةِ ثُمَّ تُبَلِّغُهُ اَلْخَاصَّةُ اَلْعَامَّةَ "[13]، وهو نفس التوجيه الذي أقرّه العلماء في توجيه ما تشابه من اللفظ في الموضعين، وزادوا عليه تفصيلا يقتضيه السياق العام للسورة[14].

نقلت لنا ألفاظ الآيتين تصويرا بديعا لمجلس الطاغية المتجبر، أمام نبي الله موسى عليه السلام، وقد شكلت لغة الحوار بينهما مشهدا تاما نقلت لنا من خلاله أجواء القصر الملكي، فصورت لنا الآية الأولى كلامه وهو واجم أمام الملإ الذين كانوا من حوله، وهم خاصته وأقرب الناس إليه، مندهشا أمام آيات الله ومعجزته التي جاء بها نبي الله موسى عليه السلام، فقال تعالى: (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ) [الشعراء: 34]، ولفظة (حَوْلَهُ) تنقل السامع والمتلقي من خطية النص إلى تشكيل المشهد وكأنه يراه عيانا، وأن فرعون كان محاطا بوجهاء القوم وأشرافهم وأهل الرأي فيهم وأركان الدولة والسياسة، وهذا مجلس خاص بالملك وبطانته، دخله عليه نبي الله موسى مع أخيه هارون عليهما السلام حين أرسلهما ربهما إليه، فلما أقاما عليه الحجة وانبهر أمام آيات الله ردد قوله لمن كان حوله: (إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) [الشعراء: 34 ـ 35]، وهذا تصوير دقيق لمشهد فرعون وهو مع خاصته وأقرب الناس إليه.

ثم جاء النص الثاني يصف حالا أخرى من المشهد نفسه، وقد أعطى للسامع تصورا آخر لمجلس فرعون وملإه، وكيفية نقل الكلام وتحويله من قائل إلى قائل آخر مع تصرف يسير فيه، فقال تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) [الأعراف: 109 ـ 110]، ولا شك أن السامع يشعر بتحرك المشهد وفق وعاء زمني مغاير للوعاء الأول، وأن هناك نقلا تصويريا أهمل فيه حال الملك، وركزت فيه كاميرات الألفاظ على تصوير حال الملإ وهم يتحاورون فيما بينهم بعيدا عنه، وقد رصدت حركة عقولهم ونفسياتهم وعدم اقتناعهم التام بما قال ملكهم مع اتفاقهم معه في تكذيبهم لرسول الله موسى عليه السلام، وذلك حين رددوا مقالته كاملة إلا قوله (بِسِحْرِهِ)، التي لم ترد في قولهم،"وَإِنَّمَا لَمْ يُصَرِّحُوا بِكَلِمَةِ (بِسِحْرِهِ)، كَمَا صَرَّحَ هُوَ،

لِأَنَّهُمْ كَانُوا دُونَهُ خَوْفًا وَانْزِعَاجًا، وَأَقَلَّ مِنْهُ حِرْصًا عَلَى الطَّعْنِ فِي دَعْوَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ "[15]، ينقل النص القرآني السامع من خلال ألفاظه إلى حضور حي في ساحة الأحداث، وكأنه يعايشها حال وقوعها، فلما سمع الملأ مقالة فرعون تلقفوها ونقلوها على حالها إلى غيرهم، إلاّ أنهم غيّروا الكلمة بقصدٍ قدْ يُفهَمُ على خلافِ ما قاله بعض المفسرين، فإن فرعون ادعى أن موسى عليه السلام جاء بسحر سيتخذه وسيلة يسحر بها الناس فيخرجهم بها من أرضهم، بينما الملأ لم يقيدوا الإخراج بوسيلة السحر إنما حذروهم من وقوع الإخراج مطلقا، وهذا أخطر وأشد وقعا في النفوس من قول فرعون في إلصاق التهمة بنبي الله عليه السلام.

3-2- النموذج الثاني: في نزول العذاب على المكذبين من قوم شعيب عليه السلام:

تعتبر هذه القصة من متشابهات القصص التي استشكل أمرها على المفسرين، ولم يتم الجزم فيها بدليل صحيح صريح، إذ اختلف العلماء في تحديد القوم الذين خصهم الله بإرسال نبيه شعيب عليه السلام، فقد ورد في سورة [الأعراف: 85]، وسورة [هود: 84]، وسورة [العنكبوت: 36] أنه أرسله إلى (أهل مدين16)، فقال تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)، بينما ذكره في سورة [الحجر: 57 ـ 77]، وسورة [الشعراء: 176 ـ 178]، أنه أرسله إلى (أصحاب الأيكة17)، فقال تعالى: (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)، ومما زاد المسألة غموضا نسبته إليهم بذكر أخوته لهم حين أرسله إلى (مَدْيَنَ)، ولم يرد ذلك في رسالته إلى (أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ)، ويضاف إلى هذا ما جاء في تنوع نزول العذاب على المكذبين منهم، فقد ذكر أنه أخذهم بعذاب (الرَّجْفَةَ) في سورة الأعراف وسورة العنكبوت، فقال: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91))، بينما ذكر (الصَّيْحَةَ) في سورة هود، فقال: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94))، وذكر (عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ) في سورة الشعراء، فقال: (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189)).

وقد اختلف المفسرون في القول الفصل في هذه المسألة على مر العصور، بين قائل أنّ شعيبا عليه السلام قد أرسل إلى قوم فقط، وأن (أَهْلَ مَدْيَنَ) هم (أَصْحَابُ اَلْأَيْكَةِ)،

وقد جاء الاختلاف في ذكرهم بحسب ما اقتضاه السياق، وقائل منهم أنهم قومان، قد ورد ذكر كلٍّ منهما في محله في قصة تختلف عن الأخرى، وقد احتج كل فريق بحجج نقلية، وأخرى عقلية، فأما النقل فلا يثبت منه حديث يرفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما العقل فمنه ما يقبل ومنه ما يرد، وممن قال بالقول الأول قديما وحديثا، جمع من المفسرين سلفا وخلفا، منهم: محمد بن جرير الطبري[18]، وابن كثير الدمشقي[19]، و أبو إسحاق الثعلبي[20]، والشنقيطي[21]، والسعدي[22]، وغيرهم.

وأما القول الثاني فقد قال به: أبو حيان الأندلسي[23]، والحسين بن مسعود البغوي[24]، والقرطبي[25]، ومحمد رشيد رضا[26]، وغيرهم.

اعتمد الفريق الثاني على صريح اللفظ في نصوص الآيات، فقد جاء النص صريحا بإثبات أخوة شعيب لقومه (أَهْلِ مَدْيَنَ) بلفظ (أَخَاهُمْ) في سورتي الأعراف وهود، بينما حذفت في سورة الشعراء حين لم يذكر (أَهْلَ مَدْيَنَ) وذكر (أَصْحَابَ اَلْأَيْكَةِ).

ورَدَّ ابن كثير هذا القول بحجة أن السياق يقتضي عدم نسبته إلى (أَصْحَابِ اَلْأَيْكَةِ) بلفظ الأخوة لأنه لا يليق أن يثبت أخوته لهم وقد نسبهم إلى الشرك، فقال: "وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ هُنَا (أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ)؛ لِأَنَّهُمْ نُسِبُوا إِلَى عِبَادَةِ اَلْأَيْكَةِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ، وَقِيلَ: شَجَرٌ مُلْتَفٌّ كَالْغَيْضَةِ، كَانُوا يَعْبُدُونَهَا؛ فَلِهَذَا لَمَّا قَالَ: (كَذَّبَ أَصْحَابُ اَلْأَيْكَةِ اَلْمُرْسَلِينَ)، لَمْ يَقُلْ: (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ)، وَإِنَّمَا قَالَ: (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ)، فَقَطَعَ نِسْبَةَ اَلْأُخُوَّةِ بَيْنَهُمْ؛ لِلْمَعْنَى اَلَّذِي نُسِبُوا إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُمْ نَسَبًا "[27]، وهذا رد حسن وتوجيه سليم لو سلم من القدح، ذلك أن ابن كثير ذهب إلى القول به ظنا منه أن النص القرآني نسبهم إلى عبادة الأيكة، وهذا قول لم يرد في نص قرآني صريح، ولم يقل به أحد من مفسري الصحابة والتابعين ومن تبعهم.

وذهب الفريق الثاني إلى أن رسالة شعيب عليه السلام كانت إلى القومين بناء على ما ورد ذكره من تنوع نزول العذاب عليهم، فقد أَخَذَتْ (أَهْلَ مَدْيَنَ) الرَّجْفَةُ وَالصَّيْحَةُ، بينما أخذ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ (أَصْحَابَ اَلْأَيْكَةِ)، وقد رد ابن كثير هذا القول بناء على أن العقاب جاء متناسقا مع ما ذكر من معاصيهم متقابلا معها بحسب سياق الآيات، قال ابن كثير: " وَقَدْ ذَكَرَ اَللهُ تَعَالَى صِفَةَ إِهْلَاكِهِمْ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ، كُلُّ مَوْطِنٍ بِصِفَةٍ تُنَاسِبُ ذَلِكَ السِّيَاق، فَفِي اَلْأَعْرَافِ ذَكَرَ (أَنَّهُمْ أَخَذَتْهُمْ اَلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) ... فَأَرْجَفُوا بِنَبِيِّ اَللهِ وَمَنْ اتَّبَعَهُ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ. وَفِي سُورَةِ هُودٍ قَالَ: (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) [هُودٍ:94]؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اسْتَهْزَؤُوا بِنَبِيِّ اللهِ فِي قَوْلِهِمْ: (

أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) [هُودٍ:87]، قَالُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالْاِزْدِرَاءِ، فَنَاسَبَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ صَيْحَةٌ تُسْكِتُهُمْ، فَقَالَ: (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ)، وَهَاهُنَا قَالُوا: (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ، فَنَاسَبَ أَنْ يَحِقَّ عَلَيْهِمْ مَا اسْتَبْعَدُوا وُقُوعَهُ، (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) "[28].

يصعب على المتلقي اختيار أحد القولين، أو ترجيح أحد المذهبين، وهو بعيد الذهن عن تصور أحداث القصة وتفاصيلها، بل يجب عليه أن ينتقل من خطية النص إلى تشكيل الحدث السردي، والعيش مع أدق تفاصيله الواردة في اللغة السردية للآيات، حتى يتسنى له تشكيل رؤية واضحة للوقائع المذكورة في النص القرآني.

جاءت الآيات تحكي نزول العذاب الموعود على المكذبين لرسول الله شعيب عليه السلام بثلاثة أنواع، هي: (الرَّجْفَةُ)، و(الصَّيْحَةُ)، و(عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ)، وقد اتفق المفسرون على اجتماع (الرَّجْفَةِ وَالصَّيْحَةِ) على أهل مدين كما اجتمعتا على ثمود، وذلك في قوله: (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) [الأعراف:77 ـ 78]، وقوله: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) [هود:66 ـ 67].

وورد لفظ (الصَّيْحَةِ) في كثير من النصوص القرآنية في سياقات متنوعة مختلفة، مع الاتفاق بينها في تحديد معناها، قال تعالى: (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ) [يس: 49]، وقال: (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً) [يس: 53]، وقال أيضا: (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ) [ق: 42]، أجمع المفسرون على أن المعنى المراد من (الصَّيْحَةِ) المذكورة في النصوص السابقة هي صيحة الحق بالنفخ في الصور، سواء كانت نفخة الفزع أو نفخة الصعق أو نفخة البعث، والعرب تقول: " الصَّيْحُ، والصَّيْحَةُ، والصِّياحُ بـ(الكسر والضم)، والصَّيَحانُ (محركةً): الصَّوْتُ بأقصى الطاقَةِ "[29]، وفي التّهذيب: " صَوْتُ كلّ شيْءٍ إذا اشتدَّ "[30]، ويضاف إلى شدة الصوت طوله، فيقولون مجازا: " صَاحتِ النَّخْلَةُ: طالَتْ "[31]، وكذلك الصيحة في كتاب الله عز وجل فهي دالة على شدّة الصوت وطوله يوم ينفخ في الصور.

وأما ما ورد من ذكر أخذ الظالمين بالصيحة في النصوص الأخرى، فقد جاء على نوعين من التعذيب، فقد ذكرها مفردة في أخذه للظالمين بها وحدها، فقال: (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) [يس: 29]، وذكرها مقرونة بغيرها، فوردت مرة مع الرجفة في أخذ ثمود ومدين، ومرة أخرى مقرونة بعذاب آخر في تعذيب قوم لوط عليه السلام، كما في قوله تعالى: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) [الحجر: 73.74]، وتدل هذه النصوص على أنّ الصيحة كانت سببا فيما يحدث بعدها.

بلغت لغة النص القرآني كمال الدقة في الوصف حين أرادت تصوير وقوع العذاب بـ(أهل مدين)، فقد أدت لفظتا (الصَّيْحَةِ) و(الرَّجْفَةِ) تشكيلا لفضاء المكان، ووصفا لحال القوم الظالمين لحظة وقوع العذاب بهم، فقد اتفق المفسرون[32] على أن المراد بـ(الصَّيْحَةِ): " صَيْحَةُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرُوِيَ أَنَّهُ صَاحَ بِهِمْ صَيْحَةً جَثَمَ لَهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي مَكَانِهِ حَيْثُ سَمِعَهَا مَيْتًا، قَدْ تَقَطَّعَتْ حُجُبُ قَلْبِهِ "[33]، ولكنهم ذهبوا إلى أن الصيحة كانت بعد الرجفة، وهذا يخالف وقائع العذاب، لأن اللفظ وصف حال موتهم بأنهم (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)، وهذا وصف دقيق لحالة أجسادهم، فحينما دوت (الصَّيْحَةُ) عليهم رجفت بهم الأرض وتزلزلت تحت أقدامهم[34] فأفقدتهم توازنهم، فخروا على الأرض يبتغون الثبات ، فجثموا على صدورهم، والعرب تقول: " (جَثَمَ) اَلْإِنْسَانُ وَالطَّائِرُ وَالنَّعَامَةُ وَاَلْخِشْفُ وَاَلْأَرْنَبُ وَاَلْيَرْبُوعُ، يَجْثِمُ، وَيَجْثُمُ، جَثْماً، وَجُثُومًا، فَهُوَ جَاثِمٌ، لَزِمَ مَكَانَهُ فَلَمْ يَبْرَحْ، أَيْ: تَلَبَّدَ بِاَلْأَرْضِ، وَقِيلَ: هُوَ أَنْ يَقَعَ عَلَى صَدْرِهِ ... وَجَثَمَ فُلَانٌ بِاَلْأَرْضِ، يَجْثُمُ جُثُومًا: لَصِقَ بِهَا، وَلَزِمَهَا ... وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)، أَيْ: أَجْسَادًا مُلْقاةً فِي اَلْأَرْضِ، وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ: أَيْ: أَصَابَهُمُ اَلْبَلَاءُ فَبَرَكُوا فِيهَا، وَاَلْجَاثِمُ: اَلْبَارِكُ عَلَى رِجْلَيْهِ كَمَا يَجْثِمُ الطَّيْرُ، أَيْ: أَصَابَهُمُ اَلْعَذَابُ فَمَاتُوا جَاثِمِينَ أَيْ بَارِكِينَ "[35]، وحين بروكهم وجثوهم على حالتهم، فتذوقوا ويلات العذاب من تحتهم بـ(الرَّجْفَةِ)، وكانت (الصَّيْحَةُ) قد قطعت قلوبهم، فتجرعوا مرارة العذاب الهون بنوعيه.

تدل هذه النصوص بألفاظها وتصويراتها على أن (أَهْلَ مَدْيَنَ) غير (أَصْحَابِ اَلْأَيْكَةِ)، وأنهما قومان أرسل الله إليهما نبيه شعيب عليه السلام، ويتبين ذلك من خلال تحليل المشهد السردي الذي نقل لنا صور العذاب الواقع عليهما، فيجد القارئ نفسه رهن توجيه تحتمه عليه اللغة السردية للأحداث الواقعة في مشهد نزول العذاب على القومين، فقد تبين من قبلُ حال (أَهْلِ مَدْيَنَ) حين نزل العذاب عليهم وطريقة وقوعه، بينما أخذ (أَصْحَابَ اَلْأَيْكَةِ) عذابُ (يَوْمِ الظُّلَّةِ)،

وقد اتفق العلماء من المفسرين والمحدثين واللغويين على أن معنى (يَوْمِ الظُّلَّةِ) هو أن" سَحَابَةً ظَلَّلَتْهُمْ، فَلَمَّا تَتَامُّوا تَحْتَهَا الْتَهَبَتْ عَلَيْهِمْ نَارًا وَأَحْرَقَتْهُمْ، وَبِذَلِكَ جَاءَتِ الآثَارُ "[36].

يتشكل مشهد تعذيب المكذبين لنبي الله شعيب عليه السلام من خلال لفظ (الظُّلَّةِ) الذي يدل على أن القوم قد لجأوا إليها ليستظلوا بها من حر أصابهم، ولكن الله أحرقهم بما نزل من تحتها من نار فأهلكتهم، وكان ذلك كما قال تعالى: (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [الشعراء: 189]، وهذا يبين أنه كان عذابا مستقلا مختلفا عن نوع العذاب الآخر الذي عذب به (أَهْلَ مَدْيَنَ)، فإنه وإن كان ممكنا اجتماع (الصَّيْحَةِ) مع (الرَّجْفَةِ) وهو الواقع في نزول العذاب على (أَهْلِ مَدْيَنَ)، فإنه يصعب تصور وقوعهما مع التعذيب بالنار في عذاب (يَوْمِ الظُّلَّةِ)، لأن كلًّا منهما كان مقصودا في وقوعه على كل مكذب بذاته. ثم إن (تشكيل الوصف) قد زاد الصورة وضوحا حين نقل لنا حالة (أَهْلِ مَدْيَنَ) بعد وقوع العذاب عليهم، فقال تعالى: (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)، وهذا صريح بأن العذاب قد وقع في ديارهم، ولم يرد ذكر للنار ولا للذين عذبوا بها، وإنما وقوع العذاب بالنار خارج الديار كما نُقِلَ عن أهل التفسير والشرح.

وبتتبع ألفاظ نصوص الآيات التي صورت لنا المشاهد الدقيقة، وتفاصيل وقوع الأحداث يتبين أن نبي الله شعيبا عليه السلام قد أرسل إلى قومين (أَهْلِ مَدْيَنَ) و(أَصْحَابِ اَلْأَيْكَةِ)، وأن الاختلاف في اللفظ يدل على الاختلاف في المعاني الواقعة، ولم يكن التعبير بـ(أَهْلِ مَدْيَنَ) و(أَصْحَابِ اَلْأَيْكَةِ) من باب التنوع، ولم يكن ذكر أخوة شعيب عليه السلام لـ(أَهْلِ مَدْيَنَ) في سورتي الأعراف وهود، وعدم ذكرها في سورة الشعراء من باب عدم نسبته للشرك فقط، ولم يكن تنوع العذاب الواقع في سورتي الأعراف وهود واختلافه عن وقوعه في سورة الشعراء من باب ما ذكر، بل كان كل ذلك مقصودا بذاته لينقل تفاصيل الأحداث الواقعة لمشاهد قصة نبي الله شعيب عليه السلام، وقد وقع كلٌّ في محله، والله أعلم بمراده.

3-3- الحدث الثالث: في قصة الطوفان ونجاة نوح عليه السلام والمؤمنين من قومه:

نقلت لنا نصوص القرآن الكريم قصة نبي الله نوح عليه السلام في كثير من السور، وقد كانت سورة هود أهم نص سردي نقل لنا حكايته بتفاصيل لم ترد في غيرها، ومن أهم المفاصل التي صورها لنا التعبير القرآني هو ذاك الموقف الرهيب الذي كان بين الأب وابنه حالة الغرق، قال الله تعالى: (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ

يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) [هُودٍ: 42]، يقف القارئ أمام هذا النص وهو يعتقد في نفسه أن المشهد واضح وأن صورة الحدث متجلية أمامه، ولكن إذا طلب منه رسم ذلك وتشكيله وفق تصور تام، فإنه سيقف عاجزا حيال ذلك حتى يتوصل إلى تحديد الفضاءات المكانية التي وردت في هذا النص؛ لأن تصوير الحدث في الآية جاء في غاية من الدقة، وقد نقلت الألفاظ المشهد بالتفصيل، وجعلت من كلمة (مَعْزِلٍ) في الآية محورا مهما يدور حوله تحديد مكان وجود الابن.

ذكر العلماء ثلاثة وجوه يحتملها لفظ (اَلْمَعْزِل)، فقالوا: " أَنَّهُ كَانَ فِي مَعْزِلٍ مِنَ السَّفِينَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اَلْجَبَلَ يَمْنَعُهُ مِنَ اَلْغَرَقِ. الثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ فِي مَعْزِلٍ عَنْ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَقَوْمِهِ. الثَّالِثُ: أَنَّهُ كَانَ فِي مَعْزِلٍ مِنَ اَلْكُفَّارِ، كَأَنَّهُ انْفَرَدَ عَنْهُمْ، فَظَنَّ نُوحٌ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ لِأَنَّهُ أَحَبَّ مُفَارَقَتَهُمْ "[37]، وقالوا: "(فِي مَعْزِلٍ) أَيْ: فِي مَكَانٍ عَزَلَ فِيهِ نَفْسَهُ عَنْ أَبِيهِ وَعَنْ مَرْكَبِ اَلْمُؤْمِنِينَ. وَقِيلَ: فِي مَعْزِلٍ عَنْ دِينِ أَبِيه"[38].

هذه أقوال العلماء في تبيين المعنى المراد من اللفظ، ومع اجتهادهم في ذلك إلا أنهم لم يكشفوا الستار عن معرفة حقيقة هذا (اَلْمَعْزِل) الذي كان فيه الابن، ويبقى القارئ في منأى عن الوصول إلى تشكيل متكامل للمشهد ما لم يتمكن من الانتقال من خطية النص إلى رؤية بصرية لهذا (اَلْمَعْزِل) الذي كان فيه الابن، وجاء استعمال هذا اللفظ في موضعه دقيقا مقصودا ينقل لنا صورة واضحة المعالم، ومشهدا عظيما يبين حالة غرق الابن أمام عيني والده الذي كان حريصا على نجاته، ولكن المشهد يبقى غامضا ما لم تتبين معالمه وينكشف غطاءه.

لأجل هذا وجب علينا أن نتعامل مع النص من خلال استنطاق ما ورد فيه من ألفاظ وتراكيب وهي تؤدي دور آلات تصوير متعددة، تنقل الحدث بكل تفاصيله، وكأنك تشاهده يتحرك أمام عينيك، بل وتمكنك من ترصد كل صغير وكبير، ورؤيته من كل زوايا الرؤيا الممكنة، فيقوم النص من خلال العبارات المستعملة فيه من القيام بعملية مسح شامل لكل ما يتحرك في المشهد، وبالاعتماد على نقل مجريات الحوار الدائر بين شخصيات القصة، فتتحرك الألفاظ كآلات تصوير ترصد كل التحركات بحسب الوضع في المشهد، تتبع

القائل أحيانا، وتصور المتلقي للخطاب أحيانا، وتجمع بينهما أحيانا أخرى، وربما ترغمك العبارات الساردة للحدث والناقلة له على أن ترى المشهد من كل زواياه في آن واحد، وقد تقربك منه إلى حد رؤية أدق تفاصيله، كما يمكنها أن تبتعد بك وترفعك إلى درجة رؤية الأحداث من فوق، فترى المشهد رؤية إحاطة وإجمال.

إن هذا المستوى من نقل الأحداث في القصة القرآنية يُمَكِّنُ القارئ من العيش مع النص، وكأنه يعاين الحدث، ويساير مجرياته، ويتفاعل مع شخصيات القصة، حتى يصل إلى درجة السفر عبر الزمن ليكون أحد العناصر الفاعلة فيها، وهذا يتيح له فرصة فهم الكثير من القضايا التي بقيت عالقة بسبب اختلاف العلماء في تفسيرها.

تبدأ عبارات النص بتصوير الحدث في القصة وكأنها آلات تصوير متحركة، تتحرك وفق مسار الأحداث، فقوله تعالى (وَهِيَ) ضمير عائد على السفينة التي أُمِرَ نوح عليه السلام بصنعها على النسق الذي أوحاه الله إليه، ثم وظف الفعل الدال على استمرار الحركة وتجددها ليجعل الصورة في المشهد متحركة، فقال: (تَجْرِي)، وأسند الفعل للسفينة ليصور تجدد جريانها وحركتها بين الأمواج، وجريانها كان (فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)، وهذا نقل دقيق لصورة تفاعل عظيم نتجت عنه هذه الأمواج العظيمة، وأصل الموج هو اضطراب في حركة مياه البحر، إما بسبب فعل الرياح العاصفة، وهي عادة ما تنقلب بسببها حالة البحار فتضطرب أمواجه، وإما " لِدَفْعِ دَفَقَاتِ اَلْمَاءِ اَلْوَارِدَةِ مِنَ السُّيُولِ، وَاَلْتِقَاءُ اَلْأَوْدِيَةِ اَلْمَاءَ السَّابِقَ لَهَا، فَإِنَّ حَادِثَ الطُّوفَانِ مَا كَانَ إِلَّا عَنْ مِثْلِ زَلَازِلَ تَفَجَّرَتْ بِهَا مِيَاهُ اَلْأَرْضِ، وَأَمْطَارٍ جَمَّةٍ تَلْتَقِي سُيُولُهَا مَعَ مِيَاهِ اَلْعُيُونِ فَتَخْتَلِطَ، وَتَجْتَمِعَ وَتُصَبُّ فِي اَلْمَاءِ اَلَّذِي كَانَ قَبْلَهَا، حَتَّى عَمَّ اَلْمَاءُ جَمِيعَ اَلْأَرْضِ اَلَّتِي أَرَادَ اَللهُ إِغْرَاقَ أَهْلِهَا"[39]، وشبه الموج بالجبال في علوها وارتفاعها وامتدادها وقوتها، فقال: (فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)، وهو تصوير بديع دقيق، وكأن المستمع يرى المشهد رأي العين من خلال آلة التصوير اللفظي، فيرى سفينة وحيدة في وسط أمواج عالية، تعصف بها رياح عاتية، اختلطت فيها الألوان البيضاء بالسوداء، وطغى عليها اللون الرمادي الذي اصطبغت به السحب، وانعكس على سطح مياه البحر فامتزج بلون زرقته وخضرته، ويعلوه بياض زبد البحر الذي نتج عن تلاطم الأمواج ببعضها، ومن وسط ذاك الصخب الهائج، يخرج صوت نداء يشق الموج، والسحب، وصدر الزمان، صوت عاطفة

تخترق العاصفة، وصوت مشاعر تحترق في صدر صاحبها، صوت هيجان مشاعر أب طغى على هيجان أمواج البحر كلها، رافعا صوته بكل ما تحمله الكلمات من مشاعر: (يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ).

(وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ)، والنداء هو: "الدُّعَاءُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ، يَقُولُونَ: أُنَادِيْكَ وَلَا أُنَاجِيكَ"[40]، والعرب تصف صوت الرجل فتقول: "رَجُلٌ نَدِيُّ الصَّوْتِ بَعِيدُهُ، وَالْإِنْدَاءُ: بُعْدُ مَدَى الصَّوْتِ، وَنَدَى الصَّوْتِ: بُعْدُ مَذْهَبِهِ، وَالنِّدَاءُ (مَمْدُودٌ): الدُّعاءُ بِأَرْفَعِ الصَّوْتِ،"[41]، ووصل الصوت إلى متلقيه، واتضحت معانيه وسط صخب الأمواج وتلاطمها، والابن المخاطب كان في (مَعْزِلٍ)، يطلبه والده، ويرجو له النجاة: (يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا)، فتنجلي الحجب، ويبدأ انكشاف الغطاء عن حقيقة هذا (اَلْمَعْزِلِ)، الذي كان فيه الابن مع جملة الأمر هذه، ذلك أن طلب الفعل (ارْكَبْ) من الأب لابنه لا يمكن أن يصدر إلا على سبيل إمكانية وقوعه وتحققه، وإلا كان عبثا من القول، وهذا ما يفتح لنا أفق التوقع وتصور (اَلْمَعْزِلِ) الذي كان فيه، فهو إذًا في موضع يتيح له إمكانية الالتحاق بوالده والركوب معه، وقد يذهب الخيال إلى تصور مرتفع من الأرض عليه هذا الابن واقفا يستمع كلام أبيه، ولكن حركية المشهد تأبى ذلك وتستبعده؛ لأن الماء قد غمر كل الأرض، وتلاطمُ أمواج كالجبال لم يترك للبرية وجهًا يُرى، ولا مكانًا يُرتقى، ثم كيف له أن يحقق ما طلب منه والده ؟ وأنى له ذلك في مثل تلك الأمواج والأهوال ؟

ووردت جملة (وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) في هذا السياق لتبين حقيقة موقف الأب من ابنه، فهو لم ينسبه إلى الكفر ولم يحكم به عليه، لأنه لم يظهر له ذلك منه، وعدم ظهور كفر الابن جعل الأمر يلتبس على نبي الله عليه السلام، فكان يرجو ركوبه معه، وما كان ليعصي أمر ربه حين قال له: (وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) [هُودٍ: 37].

ثم جاء رد الابن على أبيه بقوله: (سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ) [هُودٍ: 43]، وهذا القول منه يصور لنا حالته النفسية والعقلية والجسمية، فنفسيته ترجو النجاة، وعقله يرشده إلى سبيل تحقيقها، وجسمه في موضع سيتيح له إمكانية التنقل إلى جبل يعتصم به من الماء، ولا يمكن لعاقل أن يتصور وجود الابن على اليابسة ليرتقي بعدها إلى

الجبل؛ لأن الأمواج قد طغت على معظم الأرض، ولو كان كذلك لكان في موضع منقطع عن أبيه لا يسمع أحدهما حديث الآخر.

بالاعتماد على التشكيل السردي للأحداث، والتصوير اللفظي للمشهد، وما قامت به التعابير القرآنية من حكاية أدق التفاصيل في هذا الموقف، يمكن للمتلقي أن يجزم بأن كلمة (مَعْزِلٍ) تدل على أنه كان يستعمل وسيلة معينة اتخذها لنجاته، يستطيع من خلالها أن يكون قريبا من سفينة والده يسمع كلامه، ويتجاوب معه، ثم يمكنه التحرك بها إما استجابة لطلب والده فيلحق به، ويركب معه، وإما أن يأوي إلى جبل يعتصم به من الغرق، ولا يمكن أن يتحقق له كل هذا إلا إذا كان على آلة تمكنه من التحرك على سطح الماء، فاللفظ القرآني (مَعْزِلٍ) في القصة يدل على أن الابن اتخذ لنفسه وسيلة تطفو على ظهر الماء، مقتبسا ذلك من صنع والده، الذي أوحى الله إليه صنع سفينة ينجو بها من الغرق يوم الطوفان، فنكاد نجزم بأن الابن كان على متن زورق أو ما شابهه يطفو به على الماء، يمكنه من البقاء على الهيأة التي نقلها لنا النص القرآني.

كان للفظ (مَعْزِلٍ) في مشهد الغرق دور المعنى المركزي الذي يحرك تفاصيل الحدث في القصة، فلا يمكن للمتلقي تصور المشهد بكامل تفاصيله إلاّ إذا تمكن من الوصول إلى كشف وجه حقيقة معنى هذا اللفظ، فإذا توصل إلى معرفة معنى (مَعْزِلٍ) في ارتباطه بحركية الأفعال داخل النص اللغوي، فإنه يتمكن من رؤية المشهد بكل وضوح، من خلال النقل الدقيق لألفاظ النص القرآني، التي رصدت كل التحركات في المشهد وفق مسح شامل، وكأنك أمام أحدث الكاميرات، في آخر ما توصلت إليه تكنولوجيا التصوير الفوتوغرافي.

الخلاصة:

وفي الختام يمكن إجمال ما توصل إليه البحث فيما يأتي:

- أن لكل لفظ من ألفاظ التعبير القرآني دور محوري يؤديه في السياق الذي وضع فيه، وأن وظائف الألفاظ قد حددت في سياقات القصص بدقة معجزة، فلا يقوم لفظ بأداء وظيفة لفظ آخر أو أن يحل محله.

- أن الاستعانة ببعض مناهج التحليل والدراسات الأدبية الحديثة قد يزيد من اكتشاف بعض وجوه أسرار التعابير القرآنية المعجزة، وقد تكون من المرجحات الفاصلة في مواقع النزاع والاختلاف بين أقوال المفسرين.
- أن لغة السرد في النص القرآني شكلت لدى المتلقي أحداث قصص من سبق كما وقعت حقا، وكأنه يرى المواقف المذكورة فيها رأي العين، فتتشكل الفضاءات فيها أمامه، وتتحرك الأحداث، وترتسم معالم الشخصيات عنده انطلاقا من كل لفظ وتركيب ورد في الآية.
- تبين في النماذج الثلاثة المذكورة في البحث أن الاستعانة بتطبيق إجراءات التشكيل السردي قد تقوم بحل بعض الخلاف الوارد في فهم معاني ألفاظ النص القرآني، وأن المعنى اللغوي وحده للألفاظ والعبارات القرآنية قد لا يكون مقصودا لذاته في النص، فقد تبين أن الوقوف عنده لا يكفي، بل لا بد من التركيز على دور الألفاظ في تشكيل المشهد، والاعتماد على وظيفة التصوير اللفظي للمعاني المتحركة وعدم الجمود على معانيها المعجمية فحسب.
- أن علم المتشابه اللفظي في القصص القرآني من أهم علوم القرآن الكريم، وأن تشابه الآيات في القصة الوحدة مع الاختلاف الوارد فيها جاء لينقل المشهد الواحد من زوايا تصوير مختلفة ودقيقة في آن واحد، وما تشكله لغة السرد في نص تشكله ذاتها في نص آخر، ولكن من زاوية مختلفة، حيث تقوم فيها الألفاظ برصد حركة الأحداث وتتبعها في مفاصل مهمة يتعلق بها وضوح المعاني المقصودة في القصة، وقد جاء وضع كل شيء في مكانه ليقوم بالدور المنوط به حيث لا يستطيع غيره أداء ما يؤديه هو في السياق الذي وضع فيه.

الإحالات والهوامش:

[1]. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، 1399هـ - 1979م، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، لبنان، الطبعة الأولى: (206/3).

[2]. محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط1، مادة (شَكَلَ).

[3]. حديث صحيح، متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، رواه البخاري، حديث رقم (3224)، ورواه مسلم واللفظ له، حديث رقم (5655).

[4]. بدر الدين العيني الحنفي، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (17/ 375).

[5]. أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، 1384هـ - 1964 م، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، (4/ 93).

[6]. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، 1420هـ - 1999 م، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: (2/ 44).

[7]. محمد صابر عبيد، التشكيل السردي المصطلح والإجراء، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، العراق، الطبعة الأولى، 2011م، ص (17).

[8]. المرجع نفسه، ص (22).

[9]. سامي سليمان أحمد، 2006، مدخل إلى دراسة النص الأدبي المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، ص (11).

[10]. ينظر: محمد صابر عبيد، التشكيل السردي المصطلح والإجراء، ص ص (23 ـ 24).

[11]. بدر الدين محمد الزركشي، 1376 هـ / 1957م، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، (1 / 112).

[12]. أبو البقاء الكفومي، 1419هـ/ 1998م، كتاب الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ص (1361).

[13]. أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، (131/5).

[14]. ينظر: ابن الزبير الغرناطي، 2013م، ملاك التأويل، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الخامسة، (560/2 ـ 564).

[15]. رشيد رضا، تفسير المنار، (53/9).

[16]. تطلق (مَدْيَنَ) على القبيلة، وعلى المدينة، وهي التي بقرب (مَعَان) من طريق الحجاز. كتاب تفسير ابن كثير، (447/3).

[17]. الأَيْكَةُ: الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ الْمُجْتَمِعُ. كتاب تفسير الطبري، (99/14).

[18]. قال الطبري: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: (كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ)، وَالأَيْكَةُ : الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ، وَهِيَ وَاحِدَةُ الأَيْكِ، وَكُلُّ شَجَرٍ مُلْتَفٍّ فَهُوَ عِنْدَ الْعَرَبِ أَيْكَةٌ ... وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ: هُمْ أَهْلُ مَدْيَنَ فِيمَا ذُكِرَ". أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: مكتب التحقيق بدار هجر، دار هجر، الطبعة الأولى، (633/17).

[19]. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، 1420هـ - 1999 م، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الثانية، (13/ 135).

[20]. أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، 1422هـ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (13/ 135).

[21]. محمد الأمين الشنقيطي، 1415هـ - 1995م، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (6/ 95).

[22]. عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، 1420هـ -2000م، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (596/1).

[23]. محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، 1420 هـ، تفسير البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، (186/8).

[24]. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، 1417 هـ - 1997 م، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الرابعة، (127/6).

[25]. قال القرطبي: "وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال: أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة". أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، 1384هـ - 1964م، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، (13/ 135).

[26]. محمد رشيد بن علي رضا، 1990م، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (186/8).

[27]. تفسير ابن كثير، (158/6).

[28]. المصدر نفسه، (161/6).

[29]. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، فصل الصاد، (1/ 294).

[30]. تاج العروس، الزبيدي، مادة (صيح).

[31]. المصدر نفسه، مادة (صيح).

[32]. ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، 1424 هـ /2003م، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، (1/ 403)، وتفسير القرطبي، (9/ 92)، والتفسير الكبير للرازي، (18/ 393)، وغيرها.

[33]. ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، (3/ 463).

[34]. ينظر: الزمخشري، تفسير الكشاف، (2/ 124).

[35]. ابن منظور، لسان العرب، مادة (جثم).

[36]. تفسير الطبري، (637/17).

[37]. تفسير الرازي، (351/17).

[38]. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، (158/6).

[39]. ابن عاشور، التحرير والتنوير، (262/11).

[40]. الصاحب أبو القاسم إسماعيل ابن عباد، 1414هـ / 1994 م، المحيط في اللغة، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (364/9).

[41]. ابن منظور، لسان العرب، مادة (ندى).